طفل مدريد الأجنبي

محسن الرملي

من بلدٍ بعيدٍ.. جِئتُكِ يا مدريد

كان لي بيتٌ بين الرافدينِ.. وهدّموه

كان لي إخوةٌ في العراق.. وقتلوهم

أما الناجون فتشردوا

فتشردتُ

هربتُ خائفاً.. ووحيدا

تاركاً أقداح شاي الأهل على منتصفها

ونواح ربابة جاري الراعي الطيب

لم أر السماء في بلدي أبداً

لأنها مُلثمةٌ بالغبارِ ودخان الحروب دائماً

ورأيتُ سماءكِ مدريد

يتغير لونُها كل نِصف ساعة

بآخرٍ أجمل

لذا أدمنتُ التصوير ورفع الهامة

فيما كان التصوير ممنوعاً في بلدي

وممنوعٌ رفعُ الرأس

تركتُ الشاي وصِرتُ أشربُ القهوة والنبيذ

تركتُ الرَبابة الحزينة وأسمعُ الفلامنكو الحزين

مدريد ناشفةُ الهواء والقلب

لكنها تُحَب

قَست عليّ أولاً

ثم حَنّت.. وآوتني

فعرفتُها وعرَفتني

صار ليلها بيتي

وشعراؤها إخوتي

جئتُ فرداً خائفاً، وصرتُ عائلة آمنة

وبعد ربع قرن

لازلتُ أتلذذ فيها الأمان

فنجان قهوة في مقهى على رصيف

أعرفُ شوارعكِ والمتنزهات

أعرفُ أزقتك القديمة والصعاليك

أكثر مما أعرفُ دُروب قريتي الأولى وفلاحيها

أشتاق إليك لو غبت ليالٍ ثلاث

حتى لو كان سفري إلى الجنة

مدريد أنتِ لي.. وأنا لكَ

ما كان لي أن أُولد.. في غيركِ.. لأموت فيكِ

ناشفةُ الهواء والقلب.. لا بَحر فيها

ونهرُها الصغيرُ صديقي

فتياتُها حمائمُ قريتي

ومقاهيها مَضافةُ جدّي

لم أرَ جثةَ قتيلٍ فيها أبداً

فصارت مدريد وطني

لا يَنقُصها سوى: أمي والنخيل

قَست عليّ.. ثم حَنّت

فيها عرفتُ من أنا وعرفتُ الحُب

فيها بكيتُ، ضحكتُ وضِعتُ

جعتُ، شبِعتُ، تعلمتُ وتعِبتُ

دونتُ ذاكرتي الأولى.. وتنهدتُ

فيها أنجبتُ وكتبتُ وشِبتُ

وحين رأيتُ اسمي في

كتاب تاريخها العربي، فزعتُ

كم أنا قديمٌ وأصيل.. مِثلُكِ

لكنكِ أدخلتِني المتحَف

وبقيتِ خارجهُ صبيّةٌ مُغرِية

ركنتِني لتُخلي مكاناً لطفلٍ أجنبيّ جديد

فيما ذلك الطفل القروي العراقي

لازال في داخلي حتى أموت.. ولا يموت

وفي عتمةِ قبرِهِ المدريدي الغريب

سيبقى يَحِن إلى أمهِ والنخيل

إلى أخواته والشاي ورَبابة الراعي في بلدهِ البعيد

سيسمَعُ صُراخَهُ ليلاً سُكاراكِ

وفُقراؤكِ وشُيوخَكِ الوحيدين:

أريدُ أمي والنخيل

فلا تَنسَيْ عِظامهِ في أرضكِ إلى الأبد

مادام لا يَرى سماواتكِ الساحِرة

أعِيدي عِظامَ الطفلَ الأجنبيّ

إلى حُضنِ قَبرِ أمهِ

كي يَكبُرَ مُجدّداً هناك

ويموتُ مُجدّدا هناك

فيستريح.. وتستريحين.